فضل عشر ذي الحجة

بقلم: د. محمد بن إبراهيم الحمد

لقد اقتضت حكمة الله أن مايز بين مخلوقاته؛ فَفَضَّل بعض البشرِ على بعض، وفضَّل بعض البقاع على بعض، وفضَّل بعض الأعمال على بعض ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾.

ومما هو داخل في ذلك ـ وهو المقصود ههنا ـ تفضيل بعض الأزمنة على بعض؛ فَشَرَّف ـ جل ثناؤه ـ بعض الأزمنة، وجعل لها مزيَّةً على غيرها، وجعل ثواب العمل فيها مضاعفاً.

قال ابن القيم رحمه الله متحدثاً عن حكمة الله ـ عز وجل ـ فيما يختاره: «وإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيتَ هذا الاختيارَ، والتخصيصَ فيه دالاً على ربوبيته ـ تعالى ـ ووحدانيته، وكمال حكمته، وعلمه، وقدرته، وأنه اللهُ الذي لا إله إلا هو؛ فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره.

فهذا الاختيارُ، والتدبيرُ، والتخصيصُ المشهودُ أَثَرُهُ في هذا العالم مِنْ أعظم آيات ربوبيته، وأكبرِ شواهد وحدانيته، و صفاتِ كماله، وصدقِ رسله، فنشير إلى يسير يكون منبهاً على ما وراءه، دالاً على ما سواه».

إلى أن قال رحمه الله: «ومن هذا تفضيلُه بعضَ الأيام والشهور على بعض» اـهـ.

ومن الأزمان المفضلة شهر رمضان، وعشره الأخيرة أفضل الليالي، وليلة القدر فيه خير من ألف شهر؛ فصيام هذا الشهر أفضل من صيام غيره من الشهور؛ إذ هو زمان فاضل يضاعف فيه الثواب؛ جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»**.

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنةُ عشرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ـ عز وجل ـ: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به»**.

قال ابن رجب رحمه الله: «فلما كان الصيام في نفسه مضاعفاً أجرُه بالنسبة إلى سائر الأعمال كان صيام شهر رمضان مضاعفاً على سائر الصيام؛ لشرف زمانه، وكونه هو الصوم الذي فرضه الله على عباده، وجعل صيامه أحد أركان الإسلام التي بُني الإسلام عليها» اـ هـ.

وأما أفضل أيام الدنيا فعشر ذي الحجة، فهي أشرف الأيام، وأعظمها، وفيها يضاعف العمل.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما العمل في أيام أفضل منها في هذه»**.

قالوا: ولا الجهاد؟

قال: **«ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله؛ فلم يرجع بشيء»**.

فأيام هذه العشر أفضل الأيام.

قال ابن القيم رحمه الله: «وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيره من الأيام؛ فإن أيامه أفضل الأيام عند الله».

وقال: «ونسبتها إلى الأيام كنسبة مواضع المناسك في سائر البقاع».

وقال ابن تيمية رحمه الله مبيناً المفاضلة بين العشر الأخير من رمضان وعشر ذي الحجة: «أيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان، وليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة».

وقال ابن القيم ـأيضاًـ في المفاضلة بين هاتين العَشْرَيْنِ: «فالصواب فيه أن يقال: ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فُضِّلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فَضُل باعتبار أيامه؛ إذ فيه يوم النحر، ويوم عرفة، ويوم التروية».

هذا وتأتي فضيلة هذه العشر من وجوه عدة، منها ـزيادة على ما مضىـ أن الأحاديث صرحت بأن هذه الأيام أفضل أيام الدنيا ـكما مرـ.

ومنها إقسام الله ـعز وجلـ بهذه الأيام، وإذا أقسم الله بشيء دل ذلك على شرفه، وفضله، ومزيته.

قال الله ـعز وجلـ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من السلف والخلف: إنها عشر ذي الحجة.

ومنها أنه يجتمع في عشر ذي الحجة من العبادات ما لا يجتمع في غيرها؛ قال ابن حجر رحمه الله: «والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة لمكان اجتماع أمهات العبادات فيه، وهي الصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، ولا يتأتى ذلك في غيره» اـ هـ.

وتأتي فضيلتها ـكذلكـ من ناحية شرف الزمان لأهل الأمصار، وشرف الزمان والمكان للحجاج.

وفي تلك العشر يوم عرفة ، ويوم النحر ـكما مر آنفاًـ

وبالجملة فإن فضل هذه العشر ظاهر لا يخفى ، والسعيد من وفق للعمل فيها.

فحريٌّ بنا أن نحسن استقبال هذه الأيام ، وأن نعقد العزم على ملئها بصالح الأعمال.

اللهم وفقنا للعمل في هذه العشر ، وأعنا فيها على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.